من يمنح الريح الهوية؟

عبد الله المقبالي

«من يمنح الريح الهوية؟ إنّ الأرض هنا كروية فليس لديك الآن هويّة».. هذه الكلمات المعبرة للشاعر السوداني معز عمر بخيت، هي الأبلغ والأقدر على وصف حالة التشظي التي تعيشها الهوية المسيحيّة العربية. والحديث عن الهوية المسيحيّة في شقه التاريخي ليس مختزلا في البحث عن قوة انتماء المسيحيين العرب، هل هم أقرب للعروبة أم لإخوة لهم في الدين؟ لأنّ الباحث التونسي عز الدين عناية، في دراسة له بعنوان (المسيحيّة العربيّة: تشظّي الهويّة ومستخلصات الوعي التاريخي) في مجلة التسامح، يرى ارتباطا وثيقا بين العربية والمسيحية الخالصة «النصرانية» باعتبار المسيحية تجربة روحية شرقية نشأت وترعرت في أحضان العربية الفصحى، و«القديمة». بنى عز الدين عناية دراسته على تقويض أفكار نمطية سائدة في المجتمعين العربي والغربي على حد سواء، تتعلق بالمسيحية العربية، باعتبارها جزءًا لا يمكن إغفاله من الحضارة العربية والإسلاميّة كذلك، وأقول الإسلاميّة لأنّ الباحث شمل بدراسته بعض الأحداث التاريخية إبّان سيطرة العثمانيين على المنطقة العربيّة، وكذلك لأنّه سيتحدث عن المسيحيين من الأرمن والقبرصيين.

الحديث عن المسيحية العربية يتطلب بطبيعة الحال علما بالفيلولوجيا وتاريخ الأديان، ومعرفة باللغات السامية. لكن مصطلح اللغات السامية لا يروق عز الدين عناية، فهو يراه إحدى المغالطات التاريخية. إذ يزعم أنّ الآرامية إحدى تمثلات العربية باعتبارها لهجة من لهجات العربية القديمة، ويفند كلمة سامية معتبرا إياها أباطيل علمية لا بد من كنسها عن طريق تنشيط فقه لغة محلي.

وينبه الباحث إلى مغالطة تاريخية كبرى، في نظره، تتعلق بإقصاء المسيح خارج إمداداته العربية، وإلحاقه بالحضارة اليهودية، فيشير إلى مصادر تاريخية تعتبر المسيح عبريا والحواريين أيضا، بينما العرب أحق بهم. ويُرجع السبب في ذلك إلى حالة التشرذم العربية في فترة نشأة المسيحية الأولى التي أدت بدورها إلى إنحسار الديانة الجديدة في إطار الآرامية، دون التوسع في حلقة اللغة الأم (العربية)، وهنا يجدر التنبيه إلى ما تمت الإشارة إليه سابقا حول فكرة انتماء الآرامية إلى العربية. ويستشهد الكاتب بما أورده المستشرق الألماني غراف -Graf- في مؤلفه «تاريخ الأدب المسيحي العربي» بأن نهضة المسيحية الحقيقية، كانت مع عودتها للمهد أي العربية، الذي تجلّى عبر إنجاز ألوف الكتب، التي لم تنشر، والتي وضعها أقباط وسريان ونساطرة وموارنة بالعربية. وينوه الدارس إلى دخول المسيحية إلى بلاد العرب حيث يشار إلى متنسكين في الخيام، وبعض العباد، بينما فسر عدم قبول العرب للملكانية (الملكانية هي إحدى الطوائف الثلاث القديمة في المسيحية وهي: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والآن لدينا الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانية، وكان أغلب أهل روما يدينون بالمذهب الملكاني)، هو أنّ العرب خبروا التوحيد وألفوه مع إبراهيم وإخناتون وموسى وآريوس وما كانت الانحرافات عن التوحيد لتغريهم، الأمر الذي سهل دخول أهل مصر والشام في الإسلام فيما بعد. ومن أسباب رفضهم لها كما ذكر الكاتب: لأنهم لا يريدون الانصياع لسلطة غير عربية. وهنا نستخلص أنّ المسيحي العربي ظل وفيا لعرقه وانتمائه الاجتماعي. ويشفع كلامه بما ذكره الحسن بن طلال في كتابه «المسيحيّة في العالم العربي» إذ عندما حدث الانشقاق بين كنيستي القسطنطينية وروما، كان المسيحيون في مصر والشام والعراق واقعين تحت الحكم الإسلامي قرابة أربعة قرون. وبقي من بين هؤلاء المسيحيين الملكانيون وحدهم في مصر والشام موالين لبيزنطة، وعلى علاقة موصولة بها سياسيا وكنسيا، كما كانوا من قبل. أمّا أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (الأقباط واليعاقبة)، وكذلك النّساطرة في العراق، فكانت بيزنطة بالنسبة إليهم مصدر اضطهاد لا أكثر. ولذلك رأوا في الحكم الإسلامي خلاصاً لهم من جور بيزنطة، فأبدوا استعدادا للتعاون معه منذ البداية) انتهى كلامه. فالكاتب كان مؤمنا بانتماء المسيحي لأرضه لذلك أصبح مرحبا بكل ما من شأنه أن يخلصهم من سلطة روما حتى ولو كان ضد إخوتهم في العقيدة.

هذا الصفاء لم يدم طويلا في نظر الكاتب بسبب بعض الممارسات التي قامت بها السلطة السياسية، خصوصا تلك التي تمت إبان فترة حكم العثمانيين لذلك يسوق للقارئ ما ذكره نقولا زيادة في كتابه المسيحية والعرب: «أحد فصول تلك الهوية الشريدة، الممارسات التي تمت في التاريخ العثماني، رهنت شقًا من الكنيسة العربية للخارج، لا تزال تبعاتها جليّة، فلما حكم السّلطان سليم بلاد الشام ومصر، اعتمد تنظيما غريبا مع الطّوائف المسيحية. جعل الكنائس التي تقبل بالطبيعة الواحدة تحت نفوذ الجاثليق أو البطريرك الأرمني. فكان الأقباط واليعاقبة والسّريان والنّساطرة تحت الغريغوريين وتابعين للبطريرك الأرمني. أمّا بطريركية أنطاكية الأرثوذكسية، ومثلها بطريركية القدس فكانتا تحت نفوذ بطريركية القسطنطينية. وكان من أثر هذا أن اغتنم البطريرك فرصة الإمرة فبسط سيطرته على سوريا وفلسطين، أي على البطريركيتين الأنطاكية والمقدسية. ولكن الخطأ الذي تولّد عن ذلك -والذي خلّف تشوّها في السّلطة الكهنوتية، تواصل حتى يومنا هذا». والخطأ الذي يشير إليه هو تولى سدّة البطريركية المقدسيّة جرمانوس اليوناني، حيث خرجت سلطة الكنيسة من أيدي البطاركة المحليين العرب لتنتقل إلى اليونانيين. وخلاصة الحديث في هذه القضية: كاتب الدراسة يطلب مراجعتين محوريتين:

الأولى: بشأن دور أباطرة الرّومان في صناعة المسيحيّة السائدة.

والثّانية: تتعلّق بمسألة تبديع المسيحية العربية -النّساطرة وكذلك الموارنة سابقا- من طرف كنيسة غربية، ساعية لإرساء هيمنة مسكونية على تراث السيّد المسيح وأتباعه. فالكاتب يرى حقيقة مغيبة فرضتها نظرية التاريخ يكتبه الغالب، يجب الحذر منها والانتباه لمغالطاتها. فاضطراب العلاقة مع روما -كما يقول الباحث- «لم ينته بإكراه قلب كنائس المشرق، للاعتراف بهيمنتها عليها، بل شرعت روما كما يرى الأب جورج خضر، مطران جبل لبنان للرّوم الأرثوذكس، في إعادة بنية لاهوتية مستجدّة، أنشأت بموجبها كنائس تابعة لها، حتى نشأ من الآشوريين الكلدان الكاثوليك في العراق، ومن الأرثوذكس الرّوم الكاثوليك، ومن الأرمن الأرثوذكس الأرمن الكاثوليك، ومن السّريان الأرثوذكس السريان الكاثوليك».

كل العوامل التاريخية السابقة بالإضافة لعوامل اجتماعية أعقبت سقوط الدولة العثمانية، جعلت من المنطقة مسرحا خصبا للصراع الطائفي المسيحي، ومركزا لإعادة تقسيم الولاءات. وقد أسهم التعليم في نهاية القرن التاسع عشر في لعب دور آيدلوجي خدم الأغراض السياسية والنتيجة أن الشاب الذي ارتاد المدارس الأمريكية تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي، أما طلاب المدرسة اليسوعية صاروا خير ممثلين لفرنسا، والشاب الذي نهل من معين المدارس الروسية أصبح روسي الهوى. جبران انتبه لتشظي الهوية فأشار إليها والواقع ما زال يصدقه، فالمتتبع للأحداث المعاصرة يرى أثر ذلك جليا على المعترك السياسي.

abdullah-maqbali@hotmail.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net